لونيس شيماء

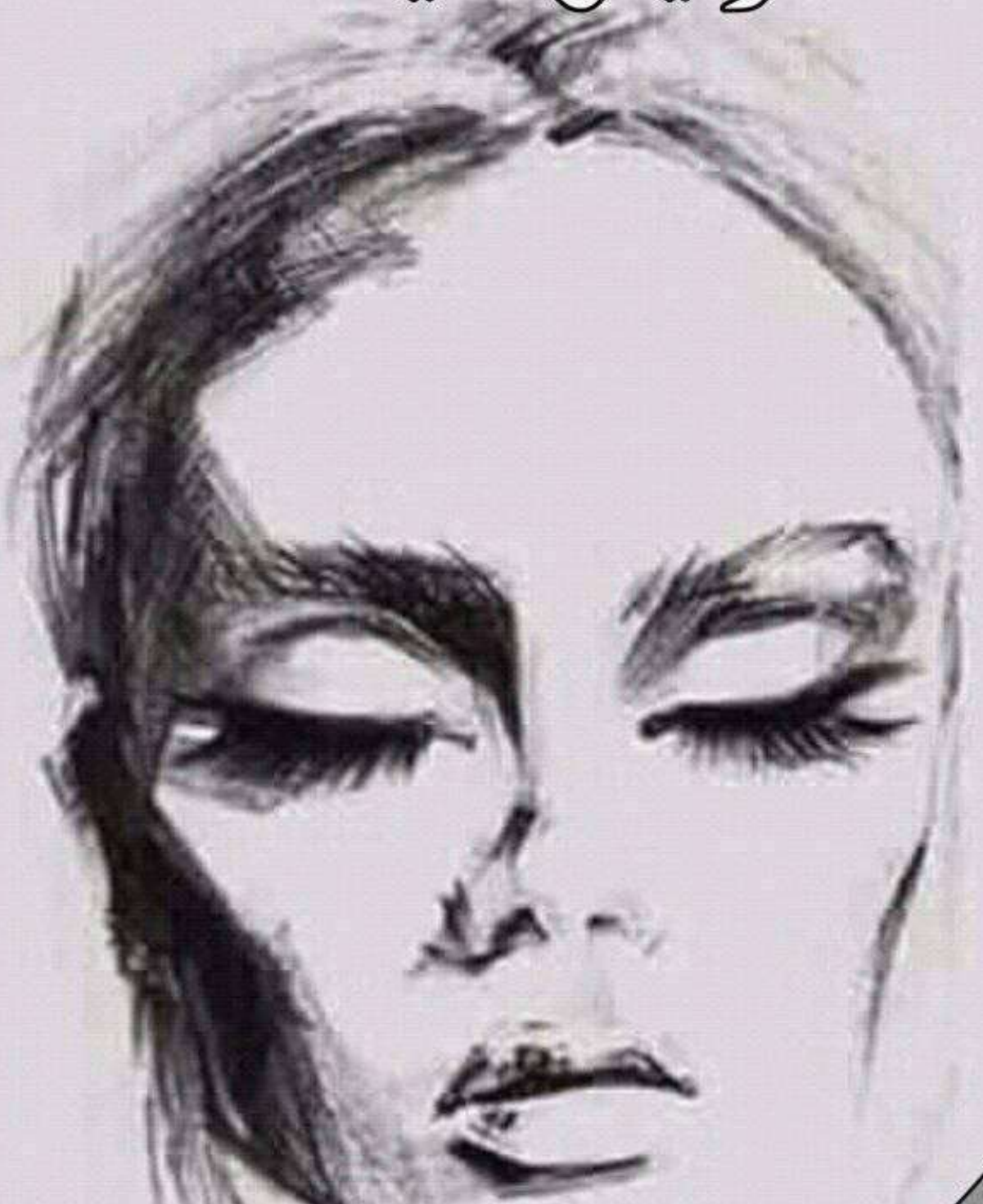

الخطيئة

ترجمة مريم حسين

حكاوي الكتب
www.hakawelkotob.com

الخطيئة

لونيس شيماء

حكاوي الكتب
www.hakawelkotob.com

تنسيق داخلي
فاطمة الزهراء

الإهداء

أهدي روايتي هذه إلى اللّذين قال فيهما عزّ و جل «وبِالوَالِدَين إحسَانا» نور دربي، ومن أدعو اللّه أن يجمعني بهما في سدرة المنتهى وتحت ضوء بدر مشتهى.

إلى ابن خالتي " عبد الحفيظ"

إلى خالتي راضية وعائلتي جمعاء.

إلى صديقاتٍ ...لا تشبهن الصديقات

"إكرام، مريم ونهى".

إلى أستاذة اللغة العربية "سوسي" التي تولتْ التصحيح و مراجعة الرواية.

أتمنى أن تكون روايتي هذه بمثابة ترياق لجراح كلّ من مرّت روحُه اللّطيفة عليها، وتلت عينيه حروفها المخطوطة.

مقدمة

قلبي هو قلمي، و نفسي هو حروف كلماتي، أكتبها إليك في رسائل، في خواطر، في روايات كي تقرأ، ويعرف الكون أجمع مدى ألمي وحسرتي الناجمين عن قسوتك.

كي يُحس بكلماتي المخطوطة رجل واحد

(هو أنت).

لا يستطيع الإنسان أن يكون دوما على صواب، لا يستطيع أن يكون دوما كاملا، لذلك

-في بعض الأحيان-يتّخذ القرار الخاطئ في حياته، وهذا ما قد يجعله حزينا لفترة أو أسيرا

في الألم الذي انغرز في قلبه إلى الأبد

إلى أن يأتي من يُصلح ذلك الرُّكام...

الناس الذين ابتلوا بالشقاء عدّة، وفي مُجتمع قاسٍ مثل مجتمعنا البُؤس هو مصيرهم...

الفصل الأول
سكرة قلب

-هل يمكن جمعه بعدما تحطم؟

أركان: هل تقبلين بمواعدتي؟

نرجس: حقًا !!

أركان: لِمَ لا إن كنتِ جادةً!

قبلت نرجس التي تبلغ من العمر ثلاثة عشر سنة بعرض الشاب أركان ...

لم تكن تعلمُ ما يخبئه لها القدر، كحال أيّ إنسان على وجه الأرض تعيش ساعتها لا تعلم حتىّ ما تؤولُ إليه الأمور بين ليلةٍ وضُحاها.

كانت جدٌّ فرحة وقتها ، لم تدر أنّ سعادتها تلك ستدوم شهرا واحدا فحسب ...

الحزن لا يدوم وكذلك السّعادة، فالحياة كالبيانو ملوّنة بالأبيض والأسود، نحنُ مُلزمون بالعزف على كلا اللّونين لِنخرج لحنًا جميلاً.

في شهر واحد بدأت العلاقة تتأزم بينهما، إذْ لم يعد أركان يسأل عن نرجس ويهتمُّ لأمرها، الأمر الذي جعلها تذكّره بيوم محادثتها له عن لا مُبالاته وعدم اِهتمامه بها متحججًا بأنها تكلمه على مدار أربعة وعشرين ساعة.

كان حُبُّ نرجس له صادقًا هذا ما جعلها تثرثر دون توقف، فهي تخلق معه الكلام من العدم لتجعل منه روايةً، وهو لا يعلم أنّ العاشق الصادق لا يتوقف عن الكلام.

نرجس فتاة قمحية البشرة، لها طول ووزن يتناسقان مع جسمها، لها جرأة تميزها عن غيرها، متواضعة وتحترم الآخرين.

أمّا عن أركان فهو شاب يملك عينان بنيتان كبيرتان، تحيط بهما رموش أكبر. طويل القامة، شفتاه رقيقتان ورديتان بشرته مائلة إلى الأبيض وشعره أسود قاتم.

بدأ أركان يتغير تغيرا لم يخفَ على نرجس، فسرعان ما أحسّت به لأنّهُ بات يتجاهل رسائلها. كان حبُّها لها الكترونيا فلم يسبق

لها أن اِلتقت به في الواقع،لأنّها نسجت أحلامها في شبكة العنكبوت بموقع من مواقعها موسوم بالفاسبوك.

كان أركان دائم الكذب على نرجس لم يصدقها القول ولم يصارحها يوما.

في يوم من الأيّام أبت نرجس الخروج من المنزل، لكنّ المرض قد أجبرها على زيارة الطبيب، وفي طريقها إليه لمحت من بعيد شخصًا يشبه بروفيل أركان، سألت نفسها: أتراهُ هو أم أنّني من فرط هُيامي به أتخيله في كلّ مكان؟ نعم، لقد كان هو رُفقة فتاة أخرى.

لا اومنُ بالصُّدف فكلُّ ما حدث وما يَحدث وما سَيحدث قدرٌ مكتوب لنا مُذ وحتى قبل ولادتنا.

شعرتْ نرجس بمغصٍ في أيسر صدرها، سكين يُغرز في قلبها من وقع ما حدث، فحاولت تهدئة نبض قلبها بعبارات تبعد فيها الشكّ الذي انتابها تجاه أركان لربما كانت أخته، لربما قريبته أو ...، كلا لا يمكن أن يكون عكس ما أتخيل.

عادت للمنزل، فتحت حاسوبها وهرعت إلى تطبيق الفايسبوك، كانت اليدان ترتجفان والقلب يَكاد يتزحزح من مكانه خوفًا من أن تكون الفتاة حبيبته.

بعثت برسالة تسأل فيها عن تلك الفتاة

وصلها الردُّ: أنا هي الفتاة التي كانت بصُحبته.

نرجِس: من تكونين؟!

الفتاة: أنا قريبته، أحببنا بعضنا منذ الطفولة وأنتِ من تكونين؟

صُدمت نرجِس بالخبر، ارتعش جسدها وأجهشت بالبكاء لِدرجة أنها لم تستطع أن تردَّ عليها من تكون.

الفتاة: لِم لا تردين؟

نرجِس: أنا حبيبته.

الفتاة: لم أكن أعلم بعلاقتكما، أركان لم يحدثني عنكِ قط.

ردَّت نرجِس ببأس: لا بأس، أين هو أركان؟

الفتاة: أركان يَحضُر حصة الدروس الخصوصيّة، لا يستطيع مُحادثتك الآن.

لم تتوقف نرجِس عن البكاء لأن عبارة نُحب بعضنا مِنَ أيّام الطفولة آلمتها حقًا ،وحفرت في قلبها جُرحا لا يُضمّد.

حلّ المساء وقرأ أركان تلك المحادثة، فبعث لنرجِس رسالة قائلاً فيها: ألا تثقين بي؟

نرجس:بلى، كنتُ كذلك في الماضي لكنّك اليوم خيبتَ أملي.

كان يريد الانفصال عنها، ولو لأتفه الأسباب.

حدّثت نرجِس نفسها والحزن لا يفارقها لم ألتقِ به أبدا، وحين التقيته كان بصحبة أخرى هل يُعقل هذا حقا؟

كانت حالتها مُزرية جدًا ومثيرة للشفقة، لِذا أراد أركان أن يبقيا صديقين.

بعد مرور أسبوع ...

اكتشفت نرجِس أنه على علاقة بفتاة غير الأولى من غير حبّ،لكن لم ترد معاتبته من جديد لأنّ حبها الأعمى جعلها تعتقد أنه سيعود لا محالة.

حلّ موسم الصيف بحلته الذهبية وبجوه الحار ...

حدّث أركان نرجِس ...

نرجِس:أ تريد ملء فراغك بي؟

أركان:لا ، لقد افترقنا. أنتِ محقة في عتابك، لكن كوني واثقة أني تركت كلّ الفتيات لأجلك، ولأنّي لم أجد منهنّ من تحُلُّ محلكِ.

بلغت نرجس أوجَ سعادتها لسماع ذلك من أركان على الرّغم أنّه لم يطلب منها الخروج معه.

مع مرور الأيّام أتت حبيبته السابقة المسماة (بثينة)والتي لم تكن تضاهي نرجس في جمالها، مدعية استمرار علاقتهما وطلبت من هذه الأخيرة الابتعاد عن أركان

لم تقبل نرجِس بطلبها ،غير أنّ بثينة ألحّت على الأمر و حاولت بكل الأساليب و الطرق تفريقهما لكن مع ذلك لم يفترقا لا لحبّ متبادل و إنّما تحطيما لغرور الفتاة .

مرت خمسة أشهر ...

مضى وقت علينا ونحن صديقان، لطالما راودتني أسئلة كثرة:

كيف يمكن للحبِّ أن يتحول إلى صداقة جافة؟ هل أحببتني حقا؟ أو كنتُ مجرد نزوة عابرة لديك. أردتُك أن تكون لي، أن تصبح شيئا خاصا بي لأنّ الأشياء التي هي ملكي لا أريد أن يُقاسمني فيها أحد.

أحببتك يا عشيقي بتفاصيل صغيرة، وبأحلام كبيرة أرى صورتكَ أمامي حين يغتالني الاشتياق. أتبحر في رسائلكَ الالكترونية حين يمسّني الحنين لكلِماتك. انتظرت منكَ القليل رُغم أن قليلك لا يرقى لمستوى القليل.

كنتُ البادئة دائما في كلّ شيء: في لقائنا، في صداقتنا، في حديثنا ...، وكنتَ البادئ في شيء واحد هو اللامبالاة التي كانت تمزق أعضائي إلى أشلاء، فحبكَ البارد أحرق عواطفي الجياشة، كان الأمر موجعٌ حدّ الموت.

... إنها الرابعة فجرًا، لا زلتُ مستيقظة أكتب هذه التساؤلات وكأنّها خنجرٌ مسمومٌ يَنغرز في قلبي.أنا أتنفسُ بصعوبة، أكاد أختنق.

ما بالُ يميني تخذلني؟ كلّما هممت بكتابة حرفٍ، تعجز عن إمساك القلم لتخطّ مدامعي؟

ما بالُ هذه المحبرة لا تتسع لِصرخات قلبي؟

ما بالُ ذهني مشتت التفكير، تتساقط منه وُريقات المعاني؟

ما بالُه عالقٌ في ذكرياتكَ وحنينك؟

تعال، حدثني الآن دون مقدمات فأنا لا أجيد الحديث غير المباشر، سأنصتُ إليكَ وسأنصفك... لماذا لا تختلق الأعذار مثلي؟ في كلِ لنلتقي،لأطفئ نار الشوق التي تحرق حبالي الصوتية كلّما أتحدث،وتصدر عنها صرخات موجعة.

هل تظنُ أن رسائلكَ ستخمد تلك النار وتصلح الدّمار؟

وهل تظن أنّ استحضار صُورك سيطفئ ذلك الشوق والحنين؟

هل نِمتَ يوما مرتاح البال، ناسيا أنّك نبشت جرحا آلمت به قلبي؟

هل صحوتَ يوما مبتهجا جرّاء رؤيتكَ لي في المنام؟

أ لا تملكُ جوابا؟

رغم خيبات الأمل التي جعلتني أعايشها سامحتك وقلت:سأظل أحبه ظنًّا منّي أنّ حبّنا سيكون أبدياً

مساء ذاتِ يوم، كنتُ أنتظره في الموعد والمكان اللّذين اتفقنا عليهما، سبقته بخمسٍ وأربعين ثانية. بعد تبادل التحية وبعض كلمات التِرحاب والمجاملة مع العاملين التقت عينانا، لم ينتبه لجسده الذي ارتد قليلا للوراء بمسافة غير ملحوظة لمن لم يتمرس قراءة لغة الجسد.

تقدم نحوي والابتسامة لا تفارق ثغره مّد يده لمصافحتي، ثمّ جلس على الكرسي وقال: كيف الحال؟

قلتُ مبتسمة: الحمد للّه وأنتَ؟

أجاب: بخير الحمد للّه.

بعد تبادل أطراف الحديث ومختلف النكت قال أركان:أين ستدرسين؟

- بالطبع سأدرس بالبلدة هنا.

ثمّ قالت وقد غاصت في عيني أركان: إذا حدّثتني عن معنى الانهيار ومعنى الذوبان قلتُ: نظرة واحدة في عينيك تهدّ جِبالا وتذيب جليدا فتغرق العوام. أعشق عينيك فهما تأسراني، هل وجدتَ يوما أسيرا يعشق السجن؟

- مع من أتحدث؟

أجابت نرجس بعدما شردت لفترة: دعني أطرح السؤال الذي طرحته للمرة الألف.

بنبرة مستفزة قال أركان مقاطعا: لا داعي أن تتمتمي، سمٌ ما بيننا، سمٌ ما بيننا...أعرف جيدا هذا السؤال، وملت منه على الرّغم من أنّي لم أفهم إلحاحكِ هذا السؤال. هلاّ توقفتِ عن هاته السّخافة. أ لم تسأمي بعد؟

أوقفني المشهد الذي رأيته قبل يوم عن الإجابة، فحينما كنتُ أتصفح موقع التواصل الاجتماعي " الفايسبوك" صادفتُ صورة أركان على صفحة فتاة، فأيقظ ذلك نيران الغيرة بداخلي.

أجبته عن سؤاله الأخير بإعادة ذكر ما رأيته، فاحمّر وجهه ولم يستطع رفع رأسه. بدأ يُحرك يديه واضعا يده اليسرى حول عنقه.

- ليس من الصعب أن يُلاحظ أحد هذا التوتر والخوف الذي طوقته به لغة جسده -وقال: غيرتكِ هذه ستنهي ما بيننا يوما ما، لِمَ تحشرين أنفكِ في كلّ شيء؟

تمالكت نفسي كي لا تنحدر تلك الدموع التي تسبّب فيها كلامه الجارح، وقلت: لم أسألكَ عن الفتاة فأنا أعلم أنّك زير نساء، وإنّما سألتكَ عن علاقتنا فأجب!

ضرب بكفِّه الأيمن الطاولة وقال غاضبا: اللّعنة، لِمَ يَهمكِ هذا الأمر؟

خفضت رأسي، وارتعش جسدي من صوته المدّوي

ثمَّ قال بصوتٍ أقل حدّة: نحنُ أصدقاء، أصدقاء لا أكثر ولا اقلّ.

كانت كلماته كالصاعقة وأثارت فيضاً من الدموع ومشاعر الألم والانكسار، لكنّي كظمتُ غيضي وقلت: أصدقاء ؟!لا بأس.

أدركَ حالته التي أمسى عليها ،ومدّ يديه إلى يداي ليحتضنهما، فانتزعتهما من يديه وقلتُ: مِنَ السهل كسر خواطر الآخرين ،وجرحهم بالكلام الحقير والمهين أليس كذلك؟

لا، لم تعد أركان الذي أعرفه، أنتَ شخص مجهول، على هذا سأفكّ ميثاقنا اليوم، سأتخلى عنك، سأنهض وأدير ظهري لك لأنسى طريق العودة إليك، وإن كانت في قلبكَ ذرة حبّ تجاهي فامنعني.

صمتنا لدقائق وكأنّها سنوات مرّت، أردته أن يُفكر فطال صمته، نهضت وأدرت ظهري وأملي أن يوقفني، أن يقول لي: لا تذهبي، لا أحتمل غيابكِ عنّي ...، لكنه لم يفعل. لم يبق لي كبرياء لألمَّ به شتات نفسي، أهلكني قلبي و ياله من قلب.

رسالتي الأولى (كتبتها ولم أرسلها):حاولت أن أتذكر كلّ شيء فيك، لعلّي أخفّف وطء فاجعتي، إلاّ أنّ الذكريات السيئة تصدّني عن ذلك. أتعرفُ أسوءَ ما فيك؟ أسوءُ ما فيك أنّك أزلتني بضغطة زرّ واحدة ونسيت أن تزيل حبّكَ من قلبي. أسوءُ ما

فيك أنّكَ علمتني كلّ شيء، ولم تعلّمني كيف أجرّد نفسي منك!

اكتفيت فقط بأن تغرسَ سكين الرحيل في قلبي!

حكاوي الكتب

الفصل الثاني
نبضات متقطعة

- بعد مرور سنتين ...

ربما كان الانتظار هو أملي الوحيد الذي بقىَ لي.

رغم التحذيرات التي تلقيتها من الذين يعرفونك إلاّ أنّني لم أصدق يوما أنّك ستخونني. ظننتُ فيما مضى أنّنا سنعود يوما كما سبق، لكن ما هو إلاّ حلم "حلم لن يتحقق".

أخجل الآن من المرور بين أصدقائنا لأنّي أكدتُ لهم في كلّ مرة طيبتك ووفاءك، لكنّك خيبتَ أملي فيك.

مَن المذنب منّا؟

ألم العشق له نكهة مميزة، يختار عشاقه على هواه، لكنّه في الأخير وحين نقع في مصيدته يفعل بنا ما يريد.

بزوغ الشمس وغروبها حقيقة، خفقان قلبي أيضا حقيقة، حبكَ الأبدي هو الحقيقة الكبرى.

في اليوم الذي جعلتني في الحضيض أمام أصدقائك، توقفتْ كلّ مشاعري تجاهك. أيقنت أنّ كلّ ما كنتُ أحلم به ما هو إلاّ أكاذيب وسراب، وأنّ وعودك لي لا حقيقة لها.

ذلك اليوم الذي تركتني فيه قطعتُ وعدا على نفسي أنّي سأبني من أحلامي حقيقة، لأنّ الأحلام لا حدود لها، نتمرد فيها كما نشاء. سأواجهك ببرودتي.

قلتُ لكَ لقد جرحتني، لقد آلمتني كثيرا ،فأجبتني:

- لماذا؟ماذا فعلتُ لكِ؟

قلتُ لكَ: فعلتَ الكثير لكن لم أستطع حتّى وصف القليل من الألم الذي يختلج داخلي، أمّا الآن ستفهم معنى العذاب والألم الذي شعرتُ به طيلة سنوات، كان قلبي يتمزق يحترق.

أ لم تسمع صرخات قلبي الصّاخبة؟

أعترف أنّ الشوق يغتالني بقسوة،

أعترف بأنّ قلبي يتضوّر جوعا لسماع صوتك،

أعترف أنّ أغصاني الذابلة تنتعش بكلماتك،

أعترف أنّي أشرب منك حدّ الثمالة، وأغرق في صدى كلماتك الموجعة يا أركان،

لكنّك زرعت في نفسي الخوف من الاقتراب منك.

كان الليل قد خيّم على السّماء، أو ربما كان الصُبح على وشك الظهور. بدأتِ الشّمس ترسل أشعتها وأنا مستلقية على الفراش أبكي بحرقة، كانت الذكريات تنهش داخلي.

لم تعرف قط يا وجع قلبي مرارة ذلك.

حين كنتُ أذهب لصلاة التراويح دعوتُ الله أن ينقذني من عذابك فكان مُنقذي، دعوته أن يمنحني الصبر فكان لي ذلك، دعوته أن أبتعد عنك، فانقطعت أخبارکَ عنّي.

بأيِّ حقٍّ أو بأيِّ حجّةٍ جعلتَ أخباري تتداول بين النّاس؟

حطمّت صبري، كرامتي فنسيت أنّ للمرأة كبرياء، كنتُ قادرة على نسيانکَ بين ليلةٍ وضُحاها ،ولكنّ جُرحي أبى أن يُضمد.

رأيتك تسقط من أعماق قلبي ولم أفعل شيئا، شعرتُ لأول مرة بأني قد سئِمتُ من إنقاذك.

أطحتَ بكبريائي فذهبتُ ولن أعود. هكذا كان الأمر وهكذا فعلتَ أنتَ وفعلتُ أنا.

******

جلستُ أمام جهازي الأرعن ساعاتٍ وساعات أنتظر وصول رسالة تهنئة منك بمناسبة عيد ميلادي، لكن لا يوجد!

- مرّت ثلاثُ سنوات

ثلاثُ سنوات من العذاب والبكاء لا يزال الحال مستمر

- هل تستطيع أن تنام مطمئنا؟

- هل يُباغتك الليل بتنهيدات قلقي؟

- هل تضع يدك على قلبك كلّ ليلة حتّى تتفقدني بين جوانحك؟

- هل صحوتَ يوما مبتهجا ورأيت رؤية كنتُ أناصفك

إيّاها؟

أم أنّني غدوتُ صفحةً تالفةً ضاعت ملامحها في زحام أكاذيبك؟

******

حين أعدتُ ترتيب الأفكار كيف جرتْ والأحداث، فهمتُ كلّ شيء، فهمتُ تصرفاتك التي كانت توحي بعدم اكتمال عقلك على الرّغم من كبر سنك، فهمت أنّ الحياة قد تجعل الإنسان ناضجاً قبل أوانه، لذا فنرجس الطفولية، التي يسهُل عليكَ التحايل عليها ستبدو في وجهٍ آخر.

أصبحتّ اليوم أكثر عقلانية،

أصبحتّ اليوم أكثر تفطّنا،

أصبحتّ اليوم أكثر نرجسيّة،

لأنّها عاشتّ الأمرّين، لم تجد من يقفُ معها ويعينها على اجتياز العقبات، حاربتّ لوحدها وكانت تأمل أن تكونَ سندا لها، إلاّ أنّك جئتَ وحطّمت آمالها، رغم ذلك استمرت في حبكَ بجنون.

يقول نزار قباني:

" دعنا نتخاصم، نبكي، نعاتب، نفعل كلّ شيء إلا الفراق فأنا لا أتحمله."

أردتُ البقاء في الميدان و المكافحة، غيرَ أنّه حين رحلتْ أصبح الأمر مختلف، تألمتُ، صرختُ، بكيتُ، مرضتُ، لكنّي أصبحتُ أقوى، فلا تحاول استفزازي مجدّدا لأنّك لن تجدَ نرجس التي مرّت عليك.

" لا تتحدى إنسانا ليس لديه ما يخسره " -هتلر-

أنا أيضا أعرفُ كيف أكسرك بكلمات دامية،

أنا أيضا أستطيع أن أكون قاسية عديمة شفقة،

أستطيع أن أحلّك محلّ الغبي المتسائل والفتى الضائع والمُشرد ،

أستطيع أن أجعلكَ مسكيناً يبحثُ عن التفافات البشر إليه،

أستطيع أن أدوسَ على غرورك،

أستطيع أيضا أن أخونك،

أستطيع فعلَ كلّ شيء يؤذيك،

لكن أنا لستُ مثلك

أنا لا أشبهك!

لأنّك لا زالت راسخا في ذهني على الرّغم من أنّ حروفكَ كانت تعزف أغنياتٍ للألم على أوتار جروحي. كلّما فكرت في ذكريات الماضي، أودّ نسيان كلّ شيء ويعودَ قلبي للحياة

لأنشدَ لحن الحبّ معك

لننظر في أعين بعضنا البعض

كعشق لا ينتهي

كنبض يقودني للحياة

أريد طبع بصمتي على قلبك

أريدك ضحكة تعانق ثغري

دعنا نبكي ونتحسر

على السنين التي تركناها تهبّ مهب الريح بسبب الخيانة

من أجل المسامحة

أبذل ما في وسعك لترضيني وأعدُكَ أنّي سأسامحكَ.

******

عُد حين تمل من وحدتك ومن قسوتك.

يُحاصرني الشوق من كلّ الجهات، أدخل في حرب مع خواطري، أسدل جفوني شهيق.. زفير..

أحاول منحَ جسدي أنفاس للحياة ... يتمسكُ عقلي بعباراتٍ قلتها لي: «أحبكِ فأنتِ أسيرتي مُطوقة في سجني»

هلا أخبرتني كيف أطلقتَ سراح أسيرتِك اليوم؟

لأنّها لا زالت تبكي جرّاء قسوتك، جراء الخذلان بتلك الطريقة البشعة، جرّاء وعودك الزائفة، ومن إيذائك القاسي المتعمّد،

تبكي على نفسها التي صدقتك وأمّنتك على روحها وأحلامها التي بنتها فحطّمتها.

أريد من قلبي أن تجفّ دموعي ويموت ما تبقى منك في قلبي.

أتـدري حجـم الـدمار الـذي قـد تسـببه المسـامير المثبتـة حـين تنفصل عن أماكنها فجأة دون مقدمات؟

ذلك هو التخلي دونَ سبب.

أتدري معنى اللاّ شيء؟

يـوم سـخرتَ منّـي، يـوم وطئـت قلبـي، فضـحيتَ بـه، يـوم جعلـتَ جسدي بلا روح وقلبي بلا نبض، صباحي بلا شمس وليلي بلا قمر.

ذاك هو معنى اللاّشيء.

لو تعلم ماذا يجري خلفَ شاشات حبّنا الإلكتروني لا تدري أنّ هناك قلبٌ يُدمى لكلمات الجارحة، أضلعٌ تتمزق، عظام تهتك بذلك الألم والشوق، غصة تأتي لتخنق رقابنا، فنئنُ من الآهات والعبَرات.

لو أنّ حبري استطاع أن يُصور لكَ مشاهد الذّلّ والألم وخيبات الأمل التي عايشتها،

لرحمتني من العذاب!

في يوم من الأيّام، قلتُ لك: أخاف عليك يومَ تـوفّى كـلُّ نفـس ما كسبتْ، أجبتنـي باسـما:«دعـاؤكِ كـافٍ لهـدايتي». والآن هـل لازال دُعائي يكفيك؟

******

حكاوي الكتب

الفصل الثالث
اللّؤلؤة السوداء

نعم قد شاء اللّه أن تكون جزءا منّي وليس لي.

إن لم تفعل المستحيل من أجل أحبّائك، فلن يبقى للحبّ قيمة.

حينما تكونين عاشقة بجنون لا يهمّك حديث الناس عنكِ، فلمّا قالوا:(خائن) تألم قلبي، لكن لم يستطع إخراجك من جوفه. يقولون انسيه؟ والنسيانُ مستحيل، يَطلبون مني كُرهه؟ وأنا لا أستطيع حتّى مُحادثة نفسي بهذا الأمر.

تغير طبعي إلى حالة أصبحتُ أستصعبها: أشتاقُ إلى نفسي، أشتاقُ إلى الطفلة التي كانت بداخلي، أشتاقُ إلى أن أكون طفلة لا تكبُر ولا يغيّرها الحُزن!

نرجس قد تغيرت يا أركان وأنتَ السبب.

أ لن يأتي اليوم الذي تسأل فيه عنّي دون أيّ غاية، بنيّة صافية، بقلب يغمره الحبّ؟ أريدكَ أن تأتي الآن وتبوح لي بحبّك دون مقدمات، أنتَ تعلم أنّي لا أحبّذ المقدمات، تعال وأعدكَ بأنّي سأحبكَ كثيرا.

حين أخاصمك ولا أفسح لكَ المجال لتبرر أخطاءك، حين أرفض الاستماع لِتبريراتك العقيمة، تتحولُ عباراتك إلى عبرات تقهرُني وما هذا إلى دليل على أنّي أهيمُ بك، ولا أحبذ أن أستصغركَ في عيني كلّما خنتني بكلماتِك، فعندما تتكلّمُ يرنُّ قلبي، ولا يحتملُ غيابك. لكن ما باليد حيلة.

كلَّ ليلة من ليالي شوقي لكَ، كان الحنين يَنهش أطرافا من جسدي، يَضرمُ نيرانه في قلبي. مضت علىَّ أعوام حالكة لا أرى النور فيها أبدا، تدُق الساعة وكأنّها تعلن على أيامي الأخيرة.

لم تخني الدقائق ولا الثواني في ميعاد انتظاري لكَ، أصبحتَ كشبحٍ يُراودُني في المنام، لكن أحبُّ شبحي!

أخبرني يا حبًّا بات مقيّدا بين صفحات دفاتري

كيف أكتبك؟

أخبرني كيف أعبّر عن الذي ضاق به صدري، وأصبح كالغصّة في حنجرتي

كيف أكتبك يا وجع قلبي وقد كنتَ أماني، كيف خدعتْ عيناكَ عيناي وقد كانت نظراتك تشعرني بالارتياح والطمأنينة

وما بقيّ لي سوى ذكراك المؤلمة.

بعد مرور عام ...

ضاق على نرجس الحال في البيت فلم تخرُج منذ أيّام لتستنشق الهواء الطلق. حاولت الاتصال بصديقتها ياسمين لتروّح عن نفسها.

ياسمين فتاة سمراء، عيناها بنيتان كبيرتان، وشعرها المسدول على منكبيها مرّة تصنع منه ضفائر وتمسكه كذيل الحصان مرة أخرى.

حواجبها رقيقان وفمها صغير و جميل، شخصيتها قوية ن إذ لها ثقة كبيرة بنفسها تميزها عن غيرها.

نرجس:ألو ياسمين، كيف الحال؟

- بخير وأنتِ؟ هل أتيتِ من سفركِ؟ لقد انقطعت الأخبار عنكِ.

نرجس:نعم، نعم أنا بخير، لقد أتيتُ إلى هُنا منذ حوالي أربعة أيّام.

ياسمين:الحمد للّه لقد اشتقتُ إليكِ.

نرجس:وأنا أيضا، هل عسانا نتقابل اليوم؟

- بالتأكيد.

نرجس:إذن، حوالي الساعة الثانية زوالا، سآتي إلى بيتكم.

-حسنا، أنا في انتظاركِ.

قامت نرجس تجهز نفسها وعندما انتهت نظرت إلى الساعة، بقي لها من الوقت عشرون دقيقة، لن تذهب سيرا على الأقدام فهي

تعلم أنّها لن تصل في الوقت المحدّد ، لذا فضلت الركوب في الحافلة. ثمّ ألقت نظرة أخيرة على هندامها وخرجت.

نزلت من الحافلة وهي تسير بخُطى متثاقلة، كانت تنظر إلى الناس والشوارع. مضى وقت طويل على مغادرتها البلدة، وها هي اليوم تعود من جديد. هل يا ترى ستستطيع تخطي تلك الأحداث والذكريات التي ألقتها في قمامة الماضي وتعيش بسلام؟

من لحظة للحظة كانت تختلج في صدرها أحاسيس تريد البوح بها ، لكنّ الجميع خذلها ما عدا قلمها. يا ليتها الآن تستطيع أن تدوّن ما تشعر به. لم يبق لها حلٌ سوى أنّ تسبح في ذكرياتها المؤلمة

قبل مرور سنة ...

أركان: نرجس أنا لا أريد أن أجرحكِ، لكن لا أحبكِ!

نرجس أنتِ تريدين أحدا يُكلمكِ دائما ، لكن أنا لستُ ذلك الشخص ...

نرجس أنتِ حمقاء لأنّكِ أحببتِني ...

سقطتْ من عيناي دمعةٌ ليست دمعةَ ضُعف بل ندم، كل عبَرة ذرفتها كانت سُمًا يقتلني لا ترياقًا يُبرئ جُرحي. من قال أنّ الدموع تخفف الألم؟ من قال أنّ ألم العشق زائل مع الأيّام؟

تستطيع أن تسيطر على نفسك، لكن لن تستطيع أن تخفف ألمكَ الدمي

سيزداد حين تتذكرُ الماضي،

حين تقف على شوارع كانت بالأمس تحمل أجمل ذكرياتك مع أولئك الذين أحبُّوك رُغم عيوبك، أحبُّوك بقلوبهم الصادقة، أحبُّوك ليس لإرضاء شهواتهم، لكن لِجعلكَ تبتسم،

حين تقف على شوارع وتنزل من وجنتيك تلك الدموع الحارة، فتتمنى لو سمعتَ نصيحةَ غيرك ولم تقابل أولئك الناس،

حين تقف على شوارع وينبض قلبكَ كما نبض في اللّقاء الأول، فتتمنى لو لم يزُل ذلك الشعور الرائع،

حين تقف على شوارع وتغطس في الألم، لأنّ أبواب ذكريات الماضي المشؤوم قد فتحت أمامك،

حين تقف على كلّ تلك الشوارع، تتمنى لو أنّك لم تعدْ إلى مدينتها التي سببتْ لك شجى،فاجعة،غصّة،ألما، استياء...

ليس جُبنا منك، وإنّما كي لا تقابل جُرح السنين من جديد من أجل أن تستطيع العيش.

مسحتْ نرجس الدموع التي ذرفتها، وأخذت نَفساً عميقا وقالت: لا زلنا على قيد الحياة لأنّ ألم العشق لا يقتل...

وصلت إلى بيت ياسمين، طرقت الباب ونادتها: ياسمين أ لا زلت تحضّرين نفسك؟ أنتِ تعلمين أنّي أكره الانتظار، فلتسرعي.

ياسمين: أتيت لمَ العجلة؟

تنهدت نرجس وأجابت: أريد أن أتنزه فقد مللت من البيت.

- هل اِلتقيت بأركان؟

أجابت نرجس: لا ولا أريد!

ياسمين: كما تشائين!

بعد صمت، قالت أيضا: "في بعض الأحيان يحدث الشيء الذي لا نريده وفي الأصل نريده بشدة "، ها ها ها.

نرجس: ماذا تقصدين بقولك؟

ضحكت بخبث وأجابت: أقصد الذي أمامك.

تطلعت لترى عمّن تتحدث، وإذا بها ترى أركان، ازدادت نبضات قلبها، وعقلها يقول: لماذا هذا الحنين وأنتِ تكرهينه؟

و قلبها يقول: أريده أن يأتي ليكلمني، كلمة منه فقط تزيل ذلك الألم من قلبي، التقتْ نظراتهما غير أنّ أركان أدار وجهه فشعرتْ نرجس بألم مرير اجتاح قلبها و اصفرّ وجهها.

بدأت الشمس تتوارى في الأفق، حان وقت العودة إلى المنزل، فرجعت نرجس إلى المنزل وسارعت لغرفتها.

ارتمت على الفراش تحاول تذكر نظرات أركان إليها، لم تستطع حبس دموعها التي أمستْ تتساقط من جفنها كالدّرر، وأخذتْ تحدّث نفسها: كلّ الطرق الوعرة عبرتها لوحدي فأنا التي تصديت لعقباتها. كنتُ بحاجة إلى من يبرئ جرحَ قلبي المتعب، ويُفرغ ما في ذهني

من صخب، لكن لا أحد.

حين تُجن بمن تحبّ، لن ترى وجهه الحقيقي، و مهما تعالت نصائح الآخرين لك لن تستمع إلى أحد، لن تبصر ملامحه الخبيثة، إلى أن يأتي ذلك اليوم الذي تسقط فيه أقنعته، فتشعر بأنّك كنتَ

ذلك العاشق الولهان الذي غلّب القلب لا العقل، ثمّ يسكب لك العشق جرعة من جرعات الألم كي تتذوقها، كي تتذوق مرارة الحبّ، مرارة الألم، مرارة الخيانة.

لن أنسى أبدا خيبة الأمل التي جعلتني أعايشها،

لن أنسى أبدا جرحي الذي جعلته أكثر غورا وسكبتَ عليه الملح والليمون فجعلتني أتألم،

لن أنسى أبدا الدموع التي ذرفتها،

لن أنسى أبدا تركُك لي في منتصف الطريق وابتسامتك في وجهي وأنا أتألّم،

لن أنسى تلك الأحاسيس القاهرة،

الفصل الرابع
اغتصب براءتي

وقفت أمام المرآة والدموع تتساقط متمايلة على و جنتيها، والظلام قد ساد قلبها.

تذكرت ما دار بينهما في إحدى أيّام خصامهما:

نرجس: لا تتركني يا أركان، فأنتَ تعلم أنّي لا أستطيع العيش دونك.

أركان: أنا آسف، لكن ما بيننا قد انتهى.

نرجس: إذن قل لي ماذا أفعل لأوقف هذا الحبّ الذي ملأ قلبي لسنوات.

أركان: قومي بالانتحار.

من تظنينه رجل حياتك سيذهب ذات يوم ويؤلمك ويقسو عليك بعبارات دامية.

نرجس: أ ليس لديك قلب؟

أركان: نعم، فلم يبق لديكِ حل سوى أن تنسيني للأبد.

-علمني كيف أكرهك، علمني كيف أنساك وأعدك أنّك لن ترى وجهي مرة أخرى.

قُل لي لماذا قد سُلط عليّ هذا العذاب؟

أ لأنّي أخطأت في الاختيار؟ هل من العدل أن تسمعني العبارات القاسية؟ هل من العدل أن تذهب ولا تلتفت وراءك، وكأنّي لا أعنيك، غريبة عنك، وكأنّك لم تكن يوما معي؟

******

في اليوم الموالي، ذهبتْ نرجس عند صديقتها مريم حتى تخرج نفسها من دوّامة الألم.

نرجس بنبرة حادة: مريم استعجلي قليلا.

مريم:حسنا آتية لِمَ تصرخين؟

نرجس: أ يستغرق المرء لتحضير نفسه كلّ هذا الوقت؟

مريم فتاة سمراء تشبه النساء الشرقيات في عينيها الكبيرتين وحاجبيها السوداويين، حسنة الوجه لها عقل منطقي، ذات خبرة

في الحياة كأنّها عجوز تجاوزت السبعين، كانت الصديقة المقرّبة لنرجس.

مريم: ما به وجهك عابس؟

-أنتِ تتوهمين، لا يوجد شيء.

- أحس أنّ هناك كلاما عالقا في لسانك، هيّا فضفضي لي فأنا مصغية إليكِ.

تنهدت نرجس وقالت: بقيّ لي أمل واحد في هذه الحياة.

- ماهو...؟

ترقرقت عينا نرجس بالدموع وقالت: أن أفقد ذاكرتي وكلّ ما يربطني بالماضي، أن أنزع الذكريات المؤلمة. لم أعد أرغب في أن أحبّ أو يحبني أحد، كلّ ما أريده هو أن أنسى ولا أقع في الحبّ مرة أخرى كي لا يصطادني فأكون فريسة له.

- لا أدري ما أقول. لأنّني مهما تكلمت لن تخمد نيران قلبك. لكن مع ذلك حاولي النسيان أو التناسي فهو أحسن حل.

وضعتْ نرجس يدها فوق يدي مريم وقالت: أنتِ فتاة محظوظة جدا، لم تقعي قَّط في تلك المصيدة، كنتِ محقة حينما هربت من كلّ الحبال المؤدية إلى العشق.

- لِمَ كلّ هذا التشاؤم؟

- لأن العشق لطخني وأربكَ حياتي الهادئة، لن يستطيع قلبي الضحك من جديد.

- لا تعرفين ما قد يخبئه لكِ القدر؟ ربما سينبض قلبك،وستبتسم لكِ الحياة من جديد.

- كفاك سخافة، أنتِ تعلمين أنّي أحقد عليه ومنَ المستحيل العودة إليه.

- ماذا لو عاد ذلك الغائب؟

- لن يعود ولن أعود إليه فبقدر غروره وكبريائه أتعالى عليه، أتعالى عن كلّ مذمة.

- وإن أتى طالبا العفو؟

- هل الاعتذار كفيل بمسح كلّ ذلك الألم؟

اهتز هاتف نرجس معلنا عن وصول رسالة، سألتها مريم عن محتواها.

أجابت نرجس: هي رسالة من صديق أركان.

-اقرئيها جهرا.

- هناك أشياء عن أركان يجب عليكِ معرفتها

قالت مريم: أيُّ أشياء يتحدث عنها في رأيكِ؟

- وما أدراني، لكن ربما هي حقائق تخص علاقتي السابقة به.
- بمَ ستجيبين؟
- سأرسل له عنوان هذا المقهى لنتقابل فيه غدا
- هل تملكين هذه الشجاعة لمواجهة تلك الحقائق؟
- لا أعرف حقا، لقد تأخرت عن المنزل إلى اللقاء سأراسلك غدا حالمًا يطلعني عمّا هو كائن.
- أنتظر بفارغ الصبر.
- وداعا.

مرّت علىّ تلك الليلة بشقّ الأنفس، إلى أن لحقني نسيم الفجر. كان يبدو كلّ شيء في صباح هذا اليوم مختلفا.

فتحت النوافذ ليتسلل ذلك الهواء العليل ونسمته العبقة، هممت بتجهيز نفسي فارتديت ثيابي وخرجت على عجلة من أمري.

الوقت يمضي إنّها التاسعة والرُّبع صباحا.

جرس الهاتف يرن..

عبد الرحمان: صباح الخير يا نرجس، أين أنتِ؟

نرجس: في الطريق سأصل حوالي عشرة دقائق.

- حسنا أنا في الانتظار.

******

بعد اللقاء تركته نرجس هناك دون أن تتفوه بحرف واحد، وذهبت تمشي بخطى متثاقلة شاردة الذهن لا تعرف وجهة مسارها، تحس بغصة في حلقها عليها إخراجها لكنّها تعجز عن ذلك. قالت بينها وبين نفسها: هل أستسلم للوجع؟ هل أنتظره لأعاتبه؟ لا، لا أريد سماع تبريراته العقيمة، لن يكون له شرف

ذلك. وصلتْ إلى بيتها، فتحتْ الباب دخلتْ و تركت المفاتيح عالقةً بها ، وضعتْ هاتفها على طاولةِ الصالون ، كانت تجرُّ نفسها لتصعد على الدّرج كي تصلَ إلى حُجرتها في الطابق العلوي ، فتحتْ باب غرفتها ارتمت على الكرسي فأخذتْ تتذكر ما قاله عبد الرحمان صَحت من شرودها، شحبَ لون وجهها و حْمرَّتْ عيناها و أرسلت خيوطاً حمراء تنهمر من وجنتيها ثمَّ قالت صارخةً : ويلك ممّا سيصنعه بك جرحي، ويلك أقسم أنّي سأرد الصاع صاعين و الجرح بالجرح و البادي أظلم ، كنتُ أريد الثأر لكبريائي و كرامتي ، شعرتُ أنّ زحاما اجتاح رأسي ضوضاء صاخبةً، كلمات لا أحسن ربطها، آه منكَ يا أركان رميتَ بخناجركَ اللاذعةِ في ظهري، قلتُ بثقةٍ حاسمةٍ : سأمنحه رُقيا لا يليق بخيانته أحكمت حبرا وورقةً لأخطَّ له رسالةً ، تركتها فوق المكتب ، حاولتْ النهوض عبثا ، حتّى استندت بكفّ يدها على سطح الكتب ، مشت بخُطى مبعثرة نحو الدرج لتأتي بهاتفها لكن كان جرحُ قلبها أقوى منها فسقطتْ أرضاً ، تدحرجتْ على الدرج و من شدة الارتطام بدأ رأسها ينزف .

فتحت مريم الباب التي لمحت المفاتيح عالقة به وقالت: أين أنتِ يا نرجس؟ دُهشت حين رأتها ملقية على الأرض وبركة من الدماء حولها، تجمدت مريم وأخذت بالبكاء والصراخ.

لكن ما من مُجيب..

لم تفتح نرجس عينيها إلا بعد عملية الخياطة التي أجريت على رأسها... ما إنْ فتحتْ عينيها حتىّ هرولتْ مريم تقبلُ يديها وتقول: الحمد للّه ظننتُ أنّكِ لن تستيقظي تملكني الخوف رّغم الطبيب الذي طمأنني ..

نظرتْ إليها نرجِس باستغراب وقالت: عفوا، من أنتِ؟

بلعتْ مريم ريقها بصعوبة وسقطتْ دمعة من عينيها كانت تحملُ كلّ معاني الألم والإشفاق وقالت: أ لا تذكريني؟ أنا صديقتكِ المقربة مريم ..

اكتفت نرجس بالتحديق إليها.

تملكتْ مريم نوبة هلع،و نادتْ على الطبيب صارخة.

حضر الطبيب، أمسكته مريم من ياقته وقالت بنبرة حادة: على أساس أنّها بخير، كيف يمكن هذا ...؟ كيف أجبْ؟

أنزل الطبيب يديها وقال: على مهلك .. وصلتني فحوصات صور جهازها العصبي لكنّها سليمة، صديقتكِ تمر بصدمة نفسية ..أريد التّحدث مع أحد أفراد عائلتها.

قالتْ مريم: لا، أمها ليستْ هنا..أنا سأتحدث معها بعد شفاء نرجس، كيف يمكنُها أن تستعيد الذاكرة؟

الطبيب:لا، تجبريها على تذكّر أيّ شيء فقد يُضرها ذلك الآن أقترح أن تبعديها عن كلّ الأشخاص الذين يضرونها نفسيا ..

سأتكلم مع المريضة الآن لو سمحتِ.

- طبعا ..طبعا

دخل الطبيب الذي انفرد مع مريم أثناء حوارهما وجلس قرب نرجس وقال: كيف حالكِ الآن؟

- بخير على ما يبدو ..

- ما إسمُكِ؟وكم عمرُك؟

- نرجس، عمري ثلاثة عشر سنة ..

- ما هو آخر شيء تذكرينه؟

- أتذكرُ أنّ شهرَ رمضان كان على الأبواب ... لا شيء غيرَ هذا.

قال الطبيب وهو ينظر إلى بطاقة تعريف نرجس: لا بأس، لكن يُحزنني أنّ أقول أنّك تعيشين في سنة ألفين وستة عشر .. لا ترهقي نفسكِ على التذكّر، ويمكنُكِ الخروج من هنا فور إكمال الإجراءات، لكن ستُحافظين على المجيء للجلسات القادمة، ستمنحُك الممرضة ورقة تحمل مواعيد الجلسات.

قالت: لكن كيف يمكن حدوث هذا ؟

- سقطتِ من أعلى الدرج، لا تجبري نفسك على التذكر

- حسنا، ليكُن كذلك ..

خرجَ الطبيب ..

ثمّ قالت نرجس بينها وبين نفسها: ماذا يُمكن أن حصل خلال هذه الأربع سنوات وكيف كنتُ أعيش؟

قرعتْ مريم الباب لدخول لغرفة نرجس بعد أن أخبرها الطبيب عن نرجِس التي تعيش في الأربع سنوات الماضية،

نرجس: تفضلي بالدخول ..

دخلتْ مريم وقالت: هل نذهب إلى البيت؟

- نعم، لكن أين أمي؟

- لم أرها، لكن أظنُ أنّها في بيتِ جدتكِ، ستقلق عليكِ كثيرا إن أخبرتها برأيي لا تخبريها حتّى الغد وتصبحين أحسن قليلا كي لا تراكِ على هذه الحالة ..

- نعم، صحيح.

عادتا إلى البيت...

جرس هاتف مريم يرن..

"ألو"

أم مريم: مريم لِمَ تأخرتِ عن المنزل؟

مريم: آه يا أمي، لو تعلمين ماذا حصل لنرجس؟

ازدادت دقات قلب الأم، فقالت: خيراً ماذا حصل لها؟

مريم: لقد سقطتْ فأصيب رأسها ،وسبّب ذلك فقدانها الذاكرة.

أ تسمحين لي بالمبيت معها الليلة؟

أم مريم: طبعاً، ولكن هل أخبرتِ أمها؟

مريم: لا، لم أرد أن أقلقها عليها

أم مريم: حسناً، لا تتركيها لوحدها.

مريم: أمرُك يا أماه.

التفتتْ نرجس إلى مريم وقالت: حدّثيني عن نفسي، كيف كنتُ أتعامل مع الآخرين؟

أجابت مريم: كنتِ لطيفة مع اللّطفاء. ومُبتسمة على الدوام. وعنيفة بعض الأحيان.

- ماذا تقصدين بعنيفة؟

- أتذكّر يومَ حاول فتًى الإقتراب منكِ، أ تدرينَ ماذا فعلتِ؟

تلهفت نرجس و أجابتْ: ماذا فعلت؟

ضحكتْ مريم و قالت: ارتميتِ عليه ، موجهةً له ركلةً: أصابت رجله، لكنّها لم تفقده توازنه. يُخيّل لِمن يلمح الابتسامة البادية على محياكِ أنّكِ كنتِ تستمتعين بالمواجهة التي أثارت في نفسكِ شيئاً من الحماسة ثمّ أتبعته بهجمات أخرى حتّى كسرتِ أحد أضلعه.أنتِ جّد مخيفة حين تغضبين ، لا تصبحين نرجس التي أعرفها .

- أكنتُ أمارس الكارتي أو رياضةً أخرى ؟

- لا، و لكن كنتِ دائما تستهدفين نِقاط الضعف في الآخر.

راودَ النعاس جفون نرجس، فذهبتْ كِلتاهما لمضجعها.

أثناء نومِ نرجس ، سمعتها مريم تهذي باسم أركان، فأسرعتْ مريم لإيقاظها، غيرَ أنّ نرجس أبتْ ذلك، وقالت في تأفف: ماذا هناك؟

- كنتِ تردّدين اسم أركان.

- لا أدري، ربما من كثرة هُيامي به .

تسأل مريم عن هذه الأخيرة فتجيبها نرجس: كيف لي أن أنساه ؟

- ماهو آخر شيء تذكرينه بخصوصه ؟

- اِلتقينا و كُنا نتحدث.

جالتْ أسئلة متشعبة في ذهن مريم، بعد أن أخضعتْ نرجس للنوم. كيف ستنقذ هذا الموقف، نرجس لا تدري أنّه مرَّ على رحيل أركان أربَعُ سنوات أو ثلاث ..و فجأة تذكرتْ مريم حديثها مع نرجس حين تمنتْ هذه الأخيرة فقدان الذاكرة لنسيان معشوقها، لنسيان كلّ الألم و الأسى. لكنّه أعظم الآلام بالنسبة لها.هل القدر عابس في وجهها إلى هذه الدرجة؟

أ لا يحقّ لسعادة أن تدُق بابها؟

حلّ الصباح...

قررتْ مريم أن تتصل بأمّ نرجس و تخبرها عمّا حصل، فركبتْ هذه الأخيرة أول حافلة للوصول إلى بيتها.

اعتادت نرجس بُعد أبيها عنها بسبب عمله خارج الوطن باستثناء العطل، لاسيما أنّ أمها تخفي الأمر عنه لأنّها تعتبره خصوصية. كانت موقنة أنّ ابنتها نرجس ذات شخصية قوية و ثقة عالية بالأنا، رّغم صِغر سنها لأنّها علمتها الإعتماد على النَفس ، هذا ما جعل شخصية نرجس صُلبة كالفلاذ، فقد كانت تعملُ بمقولة : " عِش ضُعفك أمام اللّه فقط ثمّ أخرج لهم بكامل قواك"

وصلتْ أم نرجس إلى البيت، دخلتْ فلمحتْ نرجس ترتب أطرافه، اقتربت إليها و ضمتها لصدرها، فقالتْ نرجس: أينَ كنتِ يا أمي فلقد اشتقت إليكِ؟

تحسرتْ الأم على ما حلّ بابنتها و قالت: كنتُ عند جدتِك هي تبلغكِ سلامها.أخبريني ماذا حلّ بطفلتي الصغيرة حتّى أمستْ على هذه الحال؟

وضعت نرجس يديها على وجنتي أمها وقالت: ما بها طفلتك؟ لازالت قويةً على أحسن ما يُرام...

أتتْ مريم لتقاطع حديثهما و تستأذنَ للذّهاب..

أم نرجس: شكراً لاهتمامكِ بابنتي.

مريم : العفو، هذا واجبي.

نرجس: أرجو ألاّ تنقطع أخباركِ عنّا.

فور خروج مريم من منزل نرجس، اتصلت ب"عبد الرحمان"دون تردّد.

عبد الرحمان : ألو ، ماذا تريدين؟

مريم باستهزاء : طبعاً أنا لا أريدك في حدّ ذاتك.

- كفاكِ سخريةً، قولي ما عندك.

- يجب أن نلتقي، لأنّ هناك موضوع هام يجب إخبارك به، و لا يصّح ذلك في الهاتف.

- حسنا سأنتظركِ في المقهى المقابل للثانوية التي تدرسين بها.

و في تلك الأثناء جلست نرجس بعد الصّلاة للدّعاء، فهمست قائلة: " يا منْ فوضتُ لكَ أمري، فرِّج عنّي و اِهدني إلى الطريق القويم. يا عالم الغيب في الأرض و السماوات ، يا جامع النّاس ليوم الميقات، إجمعني بمن أحبّ، فلا زالت لوعة حبّه تختبئ خلفَ رمادٍ ظننته قد سكن لكن ذراه لازالت تتطاير في جسدي و بين أضلعي كالحِمم، هي لهفة الشوق و الحنين حين يتحالفان ضدي"و همت بالبكاء.

جلست مريم في المقعد المحاذي لمقعد عبد الرحمان بعد تبادل السلام ، فسألها : ما الموضوع؟

بدت ملامح الحيرة و التذبذب على وجه مريم، و قالت: نرجس فقدت الذاكرة.

ذُعر عبد الرحمان من الخبر، و قال: آه، ماذا؟كيف حصلَ هذا؟

أجابت مريم: سقطتْ من أعلى الدّرج فتضرّر رأسها.ماذا قلتَ لها ذلك اليوم؟ فالطبيب قد أخبرنا أنّها تعيش الآن في الأربع سنوات الماضية .

- و ما دخلكِ أنتِ ؟ لستُ مجبراً على الإفصاح عمّا حدث ؟

كان عبد الرحمان شابا متحفظاً على الأسرار لاسيما إن تعلّق الأمر بالمقرّبين إليه.

ألحّت مريم على الأمر و قالت: ستخبرني رغماً عنك لأنّي أقربُ الصديقات إلى نرجس، و لأنّها تتذكر أركان على أساس أنّه يبادلها الحبّ.

أجاب عبد الرحمان: لا داعٍ للإلحاح فأنا لن أبوح بشيء، لكن ينبغي التفكير في الحلّ.

سكتت مريم لبرهة قالت : كنتُ أتوقع هذا الصمت المخبئ للماضي. لا يوجد حلّ آخر ، نحن ملزمون على أن نوهم نرجس بأنّها لا زالت على علاقة معه.

تعمق عبد الرحمان في التفكير ثمّ قال: كيف سنقوم بذلك؟

أجابت مريم: ستتحدث مع أركان و تشرح له وضعها ، ليظل يُحبها كما كان في وقت مضى إن كان يُحبها أو سنجعله يحبها مجددا رّغما عنه .

عبد الرحمان: هذا أمر صعب إلاّ أننا سنحاول من أجل صديقتنا، لكن حين تستعيد نرجس ذاكرتها كيف ستكون ردة فعلها؟

- حقّا لا أعلم، لكننا مجبرون على فعل هذا..

- كما تريدين، سأذهب في وقت لاحق لأروي لأركان ما حصل لنرجس، و ما الذي عليه فعله.

- نهض مودّعاً صديقته،عازماً على تنفيذ ما اتفقا عليه لا ندري أإرضاءً لها أم شفقةً على نرجس ، أم الأمرين معاً؟.

كان أركان في مكانه المعهود، جالسا مع أصدقائه قرب كافيتريا.

ألقى عبد الرحمان السلام عليهم، و طلب من أركان التحدث على إنفراد.

أركان: ماذا تريد يا صديقي؟

عبد الرحمان: أصغ إليّ جيداً، أولا لقد أطلعت نرجس على حقيقة مشاعرك تجاهها.

شحب وجه أركان، و قال متلعثما: يا وَيْلي .ماذا فعلت..

"لا تستغرب الأمر أاعتقدت أنّ كذبتك ستدوم؟.أنا أعتبر نرجس أختاً لي، لا أرضى لأحد أن يسيء لها أو يحطّم مشاعرها"أجاب عبد الرحمان بثقة.

فثار أركان من الغضب ، كان يريد أن يوجه له لكمة تطيحه أرضاً لكنّه تمالك نفسه بحُكم الصداقة التي كانت بينهما و قال: و ماهو الأمر الثاني؟ و كيف حالها؟ هي ملامح و أسئلة تنبئ عن عشقه لنرجس.

أجاب عبد الرحمان: سقطتْ من أعلى الدرج، غير أنّها بخير الآن، لكنّ ذاكرتها عادت بها إلى الماضي بأربع سنوات ، فهي تتذكرك على أنّك حبيبها، لذا فلتجدْ منكَ شعوراً متبادلا.

بات لأركان فرصة جديدة عليه استغلالها، ما جعل معالم الفرح ترتسم على وجهه، و قال: الأمر سهل نظر إليه عبد الرحمان بتهديد: إيّاك و أن تكرر الخطأ مرّتين ، لأنّ أواصير الصداقة التي بيننا ستنقطع.

أجاب أركان بنبرة استهزاء ملوّحاً بيده اليسرى: وداعاً.

- مهلا، اتصل بها اليوم قبل الظهيرة لتذهب معها لأنّ لديها موعد مع الطبيب.

- حسناً.

اتصل عبد الرحمان و طمأن مريم بنجاح الخطة، لمْ يلبث أركان إلا قليلا و اتصل بنرجس...

هاتف نرجس يرن...

أجابت: ألو، أركان اشتقت إليك. قالتها مندهشة لعدم وجود رقم أركان مسجلا لديها.

أركان: أنا أيضا يا روحي، خِفت كثيرا عليكِ، كيف حالكِ؟

تغيرتْ حال نرجس إذ أصبحتْ مفعمة بالحيوية و الضحكة لا تفارق شفتيها.

أجابت: على أحسن ما يُرام و أنتِ؟

أركان: إن كنتِ بخير فأنا كذلك. ما رأيكِ أن أرافقكِ اليوم لموعدكِ مع الطبيب؟

أجابت نرجس: لكنّ مريم ستصحبني.

أركان: بإمكاننا الذهاب رفقة بعضنا البعض.

نرجس: حسنا، إذن سنلتقي بعد مرور ساعة.

أركان: أحبكِ.

نرجس: أبادلكَ أضعاف هذا الحبّ.

******

مرّت مريم على نرجس كي تذهبا إلى جلسة الطبيب معاً.و بعد أن خرجتا التقت نرجس بأركان الذي ذهب معها هو الآخر كي تسمح له الفرصة للتحدث معها مطولاً بعد انتهاء الجلسة، دخلت نرجس إلى غرفة الطبيب.

-أهلاً يا نرجس ، كيف حالكِ اليوم؟

- على أحسن حال.

- هل استطعت تذكر أيّ شيء؟

- لا ، مع الأسف.

- لا عليكِ.

- لا أستطيع النومَ جيداً، ربما بسبب الألم الذي في رأسي.

- إذن، سأعطيكِ مُسكناً لا تقلقي. إنّكِ لا تجبرين نفسكِ على التذكّر صحيح؟

هزتْ نرجس رأسها موحيةً بالإيجاب.

- سأطرحُ اليوم عليكِ بعض الأسئلة و تأكدي أنّ إجابتكِ ستظل سراً بيننا.

أجابت نرجس باسمة: حسناً.

- هل تحبين والدتكِ؟

- أكيد و من منا لا يُحبّ أمه.

- هل يوجد أحد في حياتك؟

- ماذا تقصد ؟

- مثل: حبيب، صديق؟

- نعم ،أملك .

- كم مرّت من سنة منذ أن تعرفتي عليه؟

- إن كنتَ تسأل كم سنة أعرفه قبل أن أفقد الذاكرة، فستكون إجابتي بأربع سنوات.

- كم عدد صديقاتك ؟

- لا أعرف غير مريم ، لكن أتذكّر إسماً "ياسمين"

- ماذا تذكرين أيضاً؟

- هذا فقط.

- شكراً على صراحتكِ يكفي هذا لليوم نلتقي في الأسبوع القادم.

- العفو، حسناً.

خرجتْ نرجس من غرفة الطبيب و طمأنتْ مريم وودعتها ثمّ اتجهتْ نحو أركان و ذهبا إلى كافيتريا المستشفى ، جلسَ كلّ واحد مقابلا للآخر.

- نرجس أ لا زلت تحبينني؟

- طبعاً، ما هذا السؤال؟

- أخاف يوماً تكرهينني فيه يا حبيبتي.

أجابت باسمة: لا أظنُّ. سأحبكَ إلى آخر نفسٍ في حياتي .

- إذن ، أخبريني كيفَ تريدين أن أحبّكِ؟

- أريد أن تحبني كورمٍ يُستعصى نزعه يا غرامي.

سادت على وجه أركان تقاسيم الدهشة و الإستغراب معاً: أ تريدينَ موتي؟

رَفعتْ حاجبها الأيمن و ارتسمت على ثغرها ابتسامة لعلها توحي على مكر و اقتربت لتهمس في أذنه: إن كنتَ ستموت فِداءً لعشقكَ لي فهذا مُباحٌ يا حبيبي.

أجاب : دعينا نغير الموضوع فقد أرعبتِني.

انفجرت نرجس ضحكاً و قالت: عجيبٌ أنتَ ، أ يُرعبكَ عشقي.

أركان: عشيقتي أنتِ.

اخترقت حروفه قلبي و طأطأتْ برأسي نحو الأسفل متظاهرة بضعف السمع لعله يُكررها.

قل لي: حبيبتي

إلى أن تخلّدَ في دمي كوشم أبدي،

قل لي: حبيبتي

إلى أن تحتل ذاكرتي

كفكرة تأبى التلاشي،

قل لي: حبيبتي

إلى أن تخترقَ حواسي،

إلى أن تسافر إلى وجداني

كغدٍ مُزهر أتوقُ دوماً للعيش فيه،

قل لي: حبيبتي، و كرّرها مراراً

قل لي: حبيبتي، حتى تصيرَ تجري في عروقي

بدايتي ، نجاتي، حياتي التي لا تعاد مرّتين.

الفصل الخامس

حين تلفظتْ صداقتنا بشهيقها الأخير.

كان الليل قد أرخّى سدوله، ذهبتْ نرجس إلى غرفتها و ارتمت على فراشها، أصبحتْ ترى كلّ شيء أجمل، الحياة تبتسم لها، إنّها أسعد إنسانةٍ على وجه الأرض، كيف لا تكون كذلك؟ و هي تملك من يُحبّها، نبضات قلبها السريعةِ تجعل الدماَ يتدفق في شراييِنها كجريان الماء في النهر. جريان سيتوقف ذاتَ يوم.

الليلةِ ستستطيع نرجس النوم بهدوء و اطمئنان بعدما رأتْ حبيب قلبها. و الغد سيكون أجمل يومٍ في حياتها لكن ربما سيكون الأخير.

حلّ الصباح بطلّةٍ جديدة...

و اِلتقى الحبيبان.

بعد تبادل كلمات التِرحاب و السلام، سأل أركان نرجس عن حالها. فأجابتْ نرجس: بخير و أنتَ؟

قال: الحمد للّه، لمْ أعد أحتمل غيابكِ عنّي.

- حقاً ما تقول؟

- أكيد ، كلّ يوم ، كلّ دقيقة، كلّ ثانية أودّ أن أكون معك، ضعي يدكِ على قلبي لتتفحصي نبضاته عند رؤيتك.

أمسكَ يدها ووضعها على قلبه، فقالت: شعور متبادل فقلبي لا يهوى غيركَ يا أنيس دربي.

- و أنا كذلك.

استمر حديثهما مطوّلا ، ثمّ افترقا كالعادة بعدها اِلتقت بمريم ،و قصّت عليها ما حدث. أرادت هذه الأخيرة أن تطلعها على الحقيقة و لكنّها أبت ذلك خوفاً من ردة فعلها ، فصمتت و كتمت ما تعرفه عن ماضيها لأنّها لا تريدها أن تتذكر أيّ شيء يربطها به.

عادت نرجس إلى البيت و الفرح يغمرها ، غيّرت ثيابها و همت بتنظيف غرفتها.فلمحت رسالة مكتوبة بخطّ يدها وسط الأوراق المبعثرة، جلست على الكرسي، فتحت الرسالة و شرعت في قراءتها من إبنة حواء سيدة النساء إلى أركان:

{أنا التي خُنتني فجرحتني ، لن أتحدث عن مرسوم خيانتك فقد مزقته، لأنّ لكَ منّي مرسوم يُمزق قلبك: "لا يزال هناك رجال

على الأرض أوفياء يستحقون الحبّ و الإحترام و سأختار واحدا منهم ينسيني الألم الذي عشته معك، و أجمع معه فتات كرامتي التي دُست عليها، و ظننتَ أنّكَ محقتها للأبد"...}

لم تستطع نرجس مواصلة القراءة لأنّها بدأت تحسّ برعشة في جسدها آلمتها كثيراً، فوقفت وبدأ صوتٌ قرع الطبول يملأ رأسها، غدا جسدها هشاً خفيفاً كالأوراق المتناثرة في الخريف، كورقة تتناثر في زحام الحياة تدُّكها العثرات من كلّ الجهات، بات قلبها مثقل مشوش بنبضات متقطعة ، اكتظت العبارات و الأحداث في رأسها ، لو أعطيت لها الفرصة كي تقتلعه لكانت أولَ الفاعلين . بدأت الدموع تنهمر، أصبح كلّ ما حولها مظلما فسقطت كجثةٍ هامدة على الأرض.

بعد مرور وقت لاحظت الأم غياب نرجس في البيت، نادتها مطولا لكن لا صدى، دخلت مسرعة إلى غرفتها فرأتها ملقاة على الأرض، أصابها الهلع فهمّت برفعها ووضعها على السرير، و هرعت للاتصال بالطبيب.

بعد إستقاظ نرجس و معالجتها، إنفردَ الطبيب بأمها ليخبرها أ لا تقلق لأنّ إبنتها بدأت باسترجاع ذاكرتها و عليهم توفير الجو الملائم ليساعدوها على العلاج النهائي لها.

بقيت نرجس طريحة الفراش لأيّام، تحس ناراً موقدة تحرق جسدها، أصواتا صاخبة تعيد لها ماضيها... لاسيما تلك الحادثة حين اِلتقت بعبد الرحمان.

قال عبد الرحمان: عذراً يا نرجس لم أرد أن أطلعك على الحقيقة على هذا النحو، و أخجلُ كثيراً من قول هذا الكلام..

أجابت نرجس: قل، ودعه ينتهي.

-أركان أرى صوركِ لأصدقاءه و لم يكفي هذا فباتَ يتداول رسائلك معه بين أصدقاءه، إمّا تفاخراً أو غروراً لا أعلم و حين كنتِ تخرجين معه كان يُصاحب فتاة غيركِ.

الآن ... تذكرتْ، إذن ما كلّ تلك التمثيليات التي قام بها؟

سكنَ الغرفة الصمتْ لبرهة ثمّ قالتْ باكية: يا رباه ماذا حلّ بي ؟يا إلهي لقد جعلتُ عدوَ الشرف يُشفقّ على حالتي التي أمسيتُ عليها، صرختْ، بكتْ، حطمتْ ثمّ ارتمتْ على الأرض فقالتْ: ما ذنبي أنا؟ أ ذنبي حين أحببته ؟ أ ذنبي حين وثقتُ به؟ أم ذنبي حين فقدتُ الذاكرة و لم أنساه؟ أيّهم ذنبي و بأيّ حقٍ يُنفذ علىّ الإعدام دون محكمة؟

بتُ جسداً بلا روح، أنتَ هو الذي فرطتَ بروحي و أنا سأفرطُ بك، سأجعلكَ تندم على كلّ ما فعلتَ بي، ستندم على كلّ انتكاسة روح جعلتني أعايشها ، على كلّ دمعة سقطتْ من وجنتاي، ويلك ممّا سيفعله بكَ جرحي .

لم تستطع الحراك بجسمها المُنهك فقد استهلكتْ كلّ قواها لقول هذه العبارات.

لم تتوقف الأسئلة عن طرح نفسها في ذهنها قالت: ماذا عن صديقتي التي جعلتْ خائني يُشفق علىّ ؟

ألمُها عميق، كلّ الأطراف من حولها مليئة بالأكاذيب، أ لن تجدّ الحقيقة؟ أين ينطفئ بركانها؟

و بعد صراخ و عتاب غطّت في النوم..

بعد اليوم الموالي استيقظت نرجس ، لم تهمل توظيب غرفتها و تناول فطورها الصباحي ..

سألتها أمها عن حالها فتقدمتْ نرجس نحو أمها و طبعتْ قبلة على جبين أمها و قالت: بخير كما لم أكنْ من قبل..ابتسمت الأم لسماع هذا الكلام من إبنتها ..

إهتز هاتف نرجس ...

كان أركان مرسل الرسالة : نرجس هل يُمكننا الإلتقاء في الكافيتريا التي إعتادت على زيارتنا؟

لم يكن لديه علم أنّها استعادت الذاكرة و لا حتّى مريم ..

أوشكت دموع نرجس على الخضوع أمام ألم قلبها ، أخفت دمعة كادت أن تسقط و إستنطع ثغرها ابتسامة شاحبة و قالت محدثة أمها : سأخرج الآن لاستنشاق الهواء ..

أجابت : حسنا ، انتبهي لنفسك.

كانت تمشي و تخمن أيّ من العبارات سيلفقها أركان اليوم.

دخلت نرجس إلى الكافيتريا ، رأت أركان قد سبقها ، تعمدت إظهار ملامح الجدية و الحزم على وجهها ، توجهت إليه ، نهض ليُصافحها ، فجلست على المقعد دون الإلتفات إلى يده التي مُدّت إليها ، لم يخفَّ على أركان تصرُفها هذا و قال: السلام عليكم.

ردّت نرجس السلام

- لم نلتقي طوال أسبوع إشتقتُ إليكِ.

- حقاً؟

- نعم.

بملامح نرجسيتها تحلتْ وقالت: لا بُدَ أنّكَ اعتدت تقمُص دور الأمير العاشق الذي لا يخون..

و كما إعتاد أركان حين تواجهه هذه المواقف يضعُ نفسه محلّ الغبي ، وقال ببلاهة: ماذا تقصدين؟

-لا تتغابى .فقد إستعدتُ ذاكرتي ، قل لي هل أشفقتَ علىّ؟

- لا ، الأمر ليس كما تظنين، أنا حقاً أحبكِ يا نرجس، أعرفُ أنّ خيانتي لكِ لا تبرر، أصرخي، عاتبي، إفعلي ما شئتِ لكن.إرجعيني إليك .

أجابتْ بضحكة هستيرية و قالتْ : أ تحبني؟

أجاب: نعم ، أعشق كلّ تفصيل فيكِ يا حبيبتي.

- شكراً ..قال مُقاطعا: أعتذر.

- تعتذر.. شكراً لأنّكَ مننتَ علىّ بهذه التضحية ماهي إلا ثوانٍ حتّى ضربتُ بكفِ يدي الطاولة ضربةً قوية ، ربما كانت كردة فعلٍ منّي نتيجة تذكري لخيانته و قلتُ صارخة: يكفي، لا أريد سماع تبريراتكَ العقيمة ، نظرتُ إليه بتحدي و أطلقتُ دفعتي الثانية من الحديث:إسمع يا هذا لا تظنّنّ أبدا أنّ حبّي لكَ

سيجعلكَ تتحكمُ بي ، أنا قصيدة لا تزينها قافيةٌ و الآن عن إذنك سأذهب.

دُهش أركان ، تجمد فمه لم يستطع الرّد لمِ تلقاه من كلام قاسٍ و قال في نفسه: كيف أصبحتْ بهذا القدر من الغرور و الكبرياء، لم أعهدها هكذا، لكن أعرف أنّها لازالت تحبني.

كنتُ أجرُّ نفسي و الدموع تتساقط سهواً إنتابني شعورٌ بالعجز من فرطِ تمثيلي المصطنع، كان الألم يُمزق أحشائي.

لِمَ كلّ هذا المكر و الخداع؟

لِمَ كلّ هذا التصنع و الكبرياء؟

أنا الخارجة على القانون

عن قانون هؤلاء التفهاء

الخارجة عن قانون البشر

أنا المتشردة عنهم بأفكاري

بمشاعري و أحاسيسي و أسلوبي و طريقة تعاملي.

أنا ضد هؤلاء البشر

ضد كلّ من عذب و إستهان بمشاعر أيّ إنسان .

كلما قطعتُ شوطاً لتشافي من إدمانك

تصفعني أحلامي

كلما قطعتُ شوطاً لتشافي من إدمانك

تغرز خنجرا آخر في قلبي

كلما قطعتُ شوطاً لتشافي من إدمانك

تخيبُ ظنّي برجولتك

أحببتك فابتليت، أشعر برغبة كبيرة أن ألتقي بشخص مخذول ليس لأشكي له مرارة الألم بل لنضحكَ سويّا على خيباتنا..

اليوم ماتت لطفلة التي كانت بداخلي ، ماتت و أتت نقيضتها تماما التي شاركتني الجسد نفسه و لم أأذن لها بالخروج ، اليوم خرجتْ و ستجعل منّي فتاة كالفلاذ يُصعب كسرها.

دخلتْ إلى البيت اتجهت نحو غرفتها و هي تقول:

كيف يصوم هذا القلب عن عشقك؟

كيف يصوم هذا العقل عن التفكير بك؟

كيف تصوم حواسي عن إجتياحك؟

صوت الذكريات يجهش بداخلي، قلبي يتضور جوعاً لسماع صوتك، أنفاسك رواء لأغصاني الذابلة، أحكمتْ ورقة و قلم لتدون حروفها لأنّها باتتْ عبئاً عليها:

الغني لن يتزوج الفقيرة فزمن السندريلا رحل، لا تنخدعي بالذي يُخبرك أنّه يبحث عن الشخصية قبل الشكل، فالعين تبصر قبل القلب في هذا الوقت، لا تثقي في أحد إلاّ في ربك و لا تفرحي بكثرة الأصدقاء فجميعهم راحلون و لا تصدقي أنّ بعد رحيلك سيحزن العالم..فأنتِ مجردَ محطة يعبر عليها القطار، لا أحد سيحبكِ لشخصيتك سيحبونكِ لجنونك ، لمرحك، ليستغلوا طيبتك ، ليغتصبوا براءتك و حين تسوء عليكِ الظروف و تحزنين يوماً سيهربون لأنّهم أنانيون ، ستتناقلكِ الكثير من المشاعر عبر هذه الحياة، ستسمعين كلاماً مختلفا من أناس عدة، سيقولون ما ليس فيكِ، ستصفعكِ الحياة مرات عدة للاستسلام و أنتِ ستقفين بتوازن ، إن كان في قلبكِ نبض إيمان ستتناثر كلّ تلك الأحداث العابرة.

"تناثرتْ، تلاشتْ،ثمّ إنتهتْ"

نامت نرجس و هي حاملةٌ لكلماتٍ تسع لكلّ العالم..

كانت نفحات الهواء تتسلل إلى صدرها ، رأتْ أركان أمامها فانقبسَ صدرها ، إفتتحَ قوله ب : صباح الخير، أظن أنّ كلام الأمس بقى ناقصاً

أجابتْ بالنفي .

قال: أنتِ تعلمين أنّي أحبّكِ و لا أريد خسارتكِ من جديد.

قالت متجاهلةً قوله هذا: أشفق عليكَ لأنّكَ ستحملُ ذنبي معكَ ليوم الحشر.. ثمّ قالت في حزم: إسمع يا هذا إنتهتْ صلاحيةُ مشاعري تجاهك، أخفتْ دمعةٌ كادتْ أن تفضحها، أغلقتْ عينيها لثوانٍ لكي لا تبوحَ عيناها بحبّها وقالت: أنا لا أشبهك، إلى اللّقاء.

قال: إنّكِ على درايةٍ أننا سنلتقي..سنفترق، لكن سنلتقي من جديد.

إدّعتْ نرجس بضُعف السمع و مضتْ في طريقها، كانت تمضي أيّامها الأخيرة قبل عودتها إلى البلدة.

انعكست صورة فتاة عشرينية في المرآة، أحرقتْ نرجس ثياب الحداد و مسحتْ أركان من مدن الذاكرة فمِثله لا يُستحق له البقاء فيها.

ثمّ أشرقَ ما بداخلها..

مرّتْ العاصفة و ها هي تخرج من عزلتها إلى زحام العالم، روح جديدة تحملها، لا تتذكر الأماكن و لا الأشخاص، تبدو لها الأشياء نقية ، جسدها الذي عهدته منهكاً عاد للحياة، تقبّل كلّ شيء في طريقها، تعانق الأشجار والشوارع، ها هي تعود من جديد لها من الأمل ما يحمله نصف سكان الكوكب و أكثر ..ها هي تستفيق من غيبوبتها و تفكَ القيود التي قيّدتْ بها و تنتفض بثقة العالم أجمع و صوت التحدي يتعالى لا يُسكته أحد، ما أجمل أن يكون المرء قويّاً، في كلّ مرة ينهض لأنّه يعتبر السقوط مذلة، لأنّه يؤمن أنّ الهزيمة لا تليق به.

كانتْ الذاكرة تمارس قهرها معي، و تفرض عليّ مشاهداً و مواقفاً كثيرة كنتُ قد حاولت جاهدة التخلص منها، أدرتُ وجهي متجاهلة،حاولت نزع القهر الذي بداخلي، لم أرى سوى

السواد ، انطفأت الأضواء..حسناً أيّتها الذاكرة لكِ ما شئتِ.توقفتْ ذاكرتي عند اللحظة التي حُكم فيها على ما بيني و بينه بالإعدام.

- من هو؟

هو ذلك الحبيب تصرفاته و كلماته، فلفظتْ صداقتنا بشهيقها الأخير و شُيّعتْ ذاكرتي في تابوت.

******

في بعض الأحيان الحياة توهمنا بأنّ الإنسان الذي صاحبناه هو أغلى شيء بالنسبة لنا، لا يستطيع التخلي عنا مهما حصل.

حين تضعُ جُلَّ ثقتك في ذلك الإنسان الذي قد تظنّه أغلى ما تملك

حين تشعر معه بالأمان فقط

حين تكون معه ذكريات عديدة، لا يستطيع عقلك كشف الوشاح الذي أسدله قلبك على الحقيقة تلك الحقيقة اللاذعة التي لست على استعداد لتواجهها.

حين تقف بين مفترق الطرق، و الحيرة تفترسك من كلّ الجوانب،

حين تفقد شهيتك تجاه البشر

حين تنزوي في غرفتك، بين حيطانك البيضاء الكئيبة و تتخذ الوحدة رفيقاً لك،

حين تطرح استفسارات و لا تجد جوابا أو حجة مقنعة،

حيت تفكر بإيجابية، و لا تدع الحياة لك الفرصة لتكون إيجابيا..فتهرب منها لتكون إنسانا جديداً..

حين تملك كلّ شيء و لا شيء..

حين تنهكك الخيبات..

حين تضيع في هذا العالم المقرف ..

أحياناً تجد أنّه ليس من الخطأ أتتخذ من العزلة رفيقا لك،

أنا التي أتوقف عن الحياة ساعات، و أعود إليها لسنوات،

أنا التي أؤمن بأنّني لم أخلق عبثاً

لم أخلق لأعيش عالة على أحد،

أنا التي أؤمن بأنّ ما وراء الصداقة حبٌّ و بعد الحبّ ألم و قد يأتي بعده الفراق.

حكاوي الكتب

الخاتمة

في يوم من الأيّام كانت فتاة تبحث عن الحبّ و لكن في ثنايا دمار خراب و ألم، فمشتْ في طريق الوحدة و العزلة و الظلام، و حين كاد حبّها يصبح رماداً و يتلاشى أعطتها الحياة فرصة لتُحبّ ثانية، فمشتْ في طريق الأنس، و أشرقتْ ظلمة قلبها شمساً ساطعة لكن ما لبث نورها أن كُسف برجوع الذاكرة.

تلك الفتاة هي نرجس، و نرجس هي أنا، لطالما تظاهرتُ أنّي قوية صامدة لا أركنُ لأحد، أريد الإبتعاد لكنّي ما ألبثُ أن أنزلق في طوفان حبّكَ الجاري.

لطالما حاولتُ البَوح بحبّي لكَ غير آبهة بمصيري إلاّ أنَّ الذاكرة أبتْ ذلك، فقد حكمت علىَّ أن أحبّكَ بصمت مؤلم، و ألمي لم يجد طريقاً ليبرئ جرحه غيرَ الكتابة.

ليس من السّيء أحياناً

أن تبتعد عن هاتفك، عن كلّ العالم الّذي تحبّه و يؤرقك،

بعيداً عن كلّ الوجوه التي لا تشبهك التي عاشتْ بك أو معك

و تركتُ و صمتٌ خذلانها بين أعماقك.

ليس من الجنون أحياناً

أن تصمّ أذنيك عن كلّ الأصوات،

عن كلّ أحاديث من يحيط بك

عن كلّ ثرثرة تعيدك لذكريات الأمس التي تربك أطرافك،

أنا لستُ وحيدة.

إن قرّرتُ أن أكفّ عن العتاب، و أعتزل الكلام

و أجدَ نفسي الضائعةَ منّي

في السفّر نحو كتابي، نحو ذاتي، نحو ذاكرتي.

حكاوي الكتب
www.hakawelkotob.com